عظمة الرسول

أدبه وشخصيته وإنسانيته

محطم الأصنام والأوهام — منقذ الأرقاء — محرر المرأة
ومنقذ الإنسانية

تأليف
دكتور عز الدين فرّاج
أستاذ بجامعة القاهرة

مطبعة المجد
٦٧ شارع الرئيس عبد السلام عارف - عابدين

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٦٠ لسنة ١٩٧٤

نبيُّ الإسلام

أدبُه وشخصيتُه وإنسانيتُه

كان النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم هو المَثَل الأعْلَى للإنسان الفاضل ، أدَّبه ربُّه فأحسنَ تأديبَه ، ليكونَ خيرَ قُدوة للناس ، وليكونَ نوراً يَهديهم إلى سَواءِ السَّبيل[1] ، وقد مَدَحه اللهُ بقوله تعالى : « وإنك لَعَلى خُلقٍ عَظيم » .

لقد اختارَه اللهُ ليحمِل الدَّعوةَ إلى الإسلام ، اختاره لِيَدعُوَ النّاسَ إلى عبادةِ اللهِ مُخلصين له الدِّينَ حُنَفاءَ ولِكَيْ يُقيموا الصلاةَ ويُؤتُوا الزكاة ، وإلى عاداتٍ طيِّبةٍ غيرِ ما كانوا يَعتادُون ، وإلى خُلقٍ كريمٍ غيرِ ما كانوا يَألفون[2] .

وطبيعيٌّ أن يَختارَ اللهُ نبيًّا امتازَ بالعَزْم الشَّديد ، والخُلقِ الرَّشيد ، والعَقْلِ السَّديد .

كان أرحَمَ النَّاسِ بالنَّاس ، وخيرَ النّاسِ للنّاسِ ، وأنفعَ النّاسِ للناس .

---

(١) سواء السبيل = الطريق المستقيم المعتدل الذى لا عوج فيه .

(٢) يألفون : يعتادون .

كان أكثرهم كرماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأوسعهم صدراً ، وأحسنهم عِشْرَة .

كان لا يحتقرُ مسكيناً لفقره ، ولا يهابُ مَلِكاً لِمُلكِه .

كان أبعدَ الناسِ غضباً ، وأقربهم إلى العفوِ والتَّسامُح ، ما دام في ذلك رِضَا الله .

كان أعدلَ الناس ، وأعفَّ الناس ، وكان أكثرهم تواضعًا ، وعَطْفًا على البائسين والمَحْرُومين .

كان يُكرِمُ أهلَ العلمِ والفضْلِ ، وكان يَصِلُ ذوى رَحِمِه ، من غير أن يفضّلهم عَلَى مَن هو أفضلُ منهم .

وظَلّ النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم مُتواضعا طُولَ حياتِه ، لم تُغيِّرهُ الأيامُ ، كان مُتواضعا فى ضَعْفِه وَانْتِصَارِه ، وكان مُتواضِعا عندما كانَ وَحيدا ، وحينما أصبحَ سيِّدَ العرب بالحقِّ والعَدل ، وعندما تجَمَّعَ حَولَه الأَنْصَارُ والأَتباعُ الأقوياء .

فعندما هُزِمَت أَمامَه جُيوشُ قُريشٍ التى حَاربَتْه نحوًا من عِشْرين عامًا ، ودَخَل مَكّةَ فاتحا . سَأَلهم ما تَظُنُّون أنِّى فاعلٌ بكُم ؟ قالوا : خيرا ، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم ، فردَّ عليهم بعفوٍ شَاملٍ وكَرمٍ نادِرٍ وقال :

اذهَبوا فأنتم الطُّلَقَاء :

وهَا هُو ذا فى مَجلسِه ، وقد أَقبل عليه أَعرابىٌّ وهو يَرتَعِدُ خَوفا ، فيقولُ له الرَّسول :

هوِّن عليك يا أخى ، فإنما أنا ابنُ امْرأَةٍ من قُريشٍ كانت تَأْكُلُ القَدِيدَ[1] .

وظَلَّ رسولُ اللهِ يَستمِعُ إلى العبدِ والأَرْمَلةِ والعَجوزِ والمِسْكينِ ، ويَقفُ فى الطَّريق لـكلِّ مَن يُصافِحُه ، يَستمِعُ إليه وإلى مُشكِلاتِه ، وكَأَنه الأَبُ الرَّحيم ، والأخُ الحَبيبُ ، نَسِيَ كلَّ مَا فعَله أهلُ مَـكَّةَ من اضْطِهادٍ وتَعذيبٍ له ولأتباعِه .

* * *

وكان زاهداً فى مَسكنِه ومأْكلِه ومَشربِه ومَلبَسِه وسائرِ أُمورِه وأحوالِه ، فـكان طعامُه عادةً الخبزَ والماء ، وكثيراً ما تَتابعت الشُّهورُ ولم تُوقَدْ بدارِه نار ، فهل بعد ذلك مَـكْرُمةٌ ومَفخَرة ؟ فحَبَّذا محمدٌ من رجلٍ مُتقشِّف ، خَشِنِ المَلبس والمَأْكل ، مُجتهِدٍ فى الله ، دائبٍ فى نَشرِ دينِ الله ، غَيرِ طامِحٍ إلى مايَطمحُ اليه غيرُه من رُتبةٍ أو دَولةٍ أو سلطان .

---

(١) القديد : اللحم المقدد

ولو كان غيرَ ذلك لما استطاع أن يُلاقِيَ من العرب الغِلاظِ احْترامًا وإجْلالا ؛ ولما استَطاع أن يَقودَهم ويُعاشِرَهم مُعظمَ وقتِه ، وهمْ ملتفُّون حولَه ، يُقاتِلون بين يَديْه ويُجاهِدون في اللهِ حقَّ جهادِه .

لقد كان في قلوب هؤلاء العرب جفاءٌ وقسْوةٌ ، وكان من الصَّعبِ قيادتهُم وتوجيهُهم ، لهذا كان مَن يَقدِرُ على ترويضِهم وإخضاعِهِم بطلا عظيما .

ولولا ما وَجدُوا فيه من النُّبلِ والفَضل ، لَما خَضَعوا لإرادَتِه ، ولَما انْقادُوا لقيادتِه .

كان إذا غاب الرجلُ من أصحابه ثلاثةَ أيامٍ سأل عنه ، فإن كان غائبا دَعا له ، وإن كان مريضا زاره .

وكان إذا وَدَّع رجلا أخذَ بيدِهِ ، فلاَ يدَعُها حتى يكونَ الرجل هو الذي يَدعُ يدَه . وكان لا يَرُدُّ أحدا سأله ، بل يُعطِيه إن كان عنده وإلا وَعَده .

وذاتَ مَرةٍ جاءت إليه امْرَأةٌ من العَرَب ، ومعها بُردَةٌ وقالت :

يا رسولَ اللهِ أكسُوكَ هذه البُردَةَ فأخذَها النبيُّ صلّى الله عليه

وَسَلَّمَ فلبسَها ، فرآها رَجُلٌ عَلَيهِ ، فقَالَ مَا أَحسَنَ هٰذِهِ البُردَةَ ! فَأَعْطِنِي إِيَّاهَا يارَسُولَ اللهِ .

فَقالَ : نَعَم ، وَأَعطاهُ الرَّسولُ البُردَةَ ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ في حاجَةٍ شَديدَةٍ إِلَيها . وَلَمَّا قامَ المصطفَى لَامَ أَصحَابُهُ هذا السَّائِلَ ، وَقالُوا لَهُ : إِنَّكَ تَعلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ مُحتَاجٌ إِلَيْهَا ، وَأَنَّهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيءٍ لَا يَمْنَعُهُ .

وَذَاتَ يَوْمٍ أَعطَتهُ امْرأَةٌ ثَوبًا كَانَ في شِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَيهِ ، وَبَعدَ قَليلٍ طَلَبَ إِلَيهِ أَحَدُ النَّاسِ شَيئًا يَصلُحُ لِأَنْ يَكُونَ كَفَنًا لِمَيِّتٍ ، فَأَعطَاهُ ذٰلِكَ الثَّوب .

وكَانَ لا يتكلَّمُ في غيْرِ حاجَة ، وهوَ القائل : « ومَنْ كَانَ يُؤْمنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَليَقُلْ خَيْرًا ، أو ليصمُتْ » : وكَانَ لا يتدَخَّلُ بالكلامِ فيما لا يُهِمُّهُ . وهو القائل : « مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ ، تَرْكُه مَالا يَعنِيه » .

وكَانَ لايَعبِسُ في وَجْهِ مُحدِّثِه ، ولا يتركه إِلَّا إِذَا أَقنَعَه ، وأَرْضَى نَفْسَهُ . وكَانَ يُخاطِبُ كلَّ شَخْصٍ على قَدْرِ فَهْمِه وخِبْرَتِه .

وكَان يَسُرُّ نفسَ مُحدِثِهِ ، ويُبَشِّرُه دائمًا بالخَيْرِ . قال عليه الصلاة والسلامُ : « بَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا » .

وكَان حلوَ الْحديث ، لا يُؤْذى أَحدًا بكلمة جَارِحة ، حتى ولوْ كَان منْ أَعدائه . وقد دَعَانا إلى أَنْ نَتكَلمَ النَّاس بِكَلام طَيِّب ، فقال : « الكلمَة الطيِّبَة صَدَقَةٌ » .

كَانَ إذا تَكَلَّمَ استَمَعَ إليه الجميعُ فى صمتٍ وهُدوء ، وإذا سَكتَ تَكلَّمُوا ، وكَانَ أَحيانًا يَمْزَحُ ولا يقُولُ إلا حَقًّا .

كانَ يُقْبِلُ على مُحدِّثه ، ويُصْغِى إليْه بوجه باشٍّ ، ونَفْسٍ مُتفتِّحَة وهوَ القائلُ : « إنكمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بأَمْوالِكُمْ ، وإنَّمَا يَسَعُهُمْ منْكُمْ بَسْطُ الوَجْه وحُسْنُ الْخُلُق » .

وكانَ يستمعُ فى تواضعٍ ظاهر ، وحِلمٍ جَمٍّ ، لا يتعجَّلُ مُحدِّثه ، ولا يَقْطَعُ عليه حديثَه .

دَخل نَفرٌ على زَيدِ بنِ ثابت ، فقالوا له : حدِّثْنا أَحاديثَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ماذا أُحَدِّثكم ؟ كُنتُ جارَه فكان إذا نَزَلَ عليه الوحيُ بَعث إلىَّ فكتبتُه له ، فكُنَّا إذا ذَكَرْنَا الدنيا ذَكَرها معنا ، وإذا ذَكَرْنَا الآخرةَ ذَكَرها معنا ، وإذا ذَكَرْنا الطعام ذَكَره معنا ، فكل هذا أُحدِّثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يَقُوم من الليل حتى تَوَرَّمت قَدَمَاه .

نَبِيُّ الإسلامِ

مُحَطِّمُ الأصنامِ

كانت أصنامُ العربِ قبل الإسلامِ مَعبودةً كلَّ العبادة ، مُقدسةً كلَّ التَّقْديسِ ، مُحترمةً كلَّ الاحترام .

كانوا يَركَعون لها ويَسجُدون ، ويُقدِّمون لها القرابين ، وَيذْبَحون لها الذَّبائح ، ويَحرِقون حولَها البخور ، مُعتقدين أنها تمنحُ الأَرزاقَ ، وتجلبُ الجاهَ والسُّلطان ، وتمنعُ الأضرارَ ، متى رَضِيَت عنهم .

كانت الأصنامُ خَرْساءَ لا تَنطِق ، وصَمَّاءَ لاتَسْمع ، ومع ذلك كانت تُوحِي إليهم بكلِّ شر ، وكانت تُفسِدُ عليهم كلَّ شيء في الحياة .

وكانت من القوة بحيث لا يَسْتَطِيعُ أحد أن يَذكرَها بسُوء ، وكانوا يتصوَّرُون أن تَزُولَ الجبالُ ولا تَزول .

وكان للأصنامِ كُهَّانٌ يتحدثون عنها ويَدْعُون لها ، ويَأمُرون بلسانها ، وَيتحكمون في عبيدِها كما يُرِيدُون .

وأرادَ اللهُ أن يَحمِيَ البَشَرَ من كَيْدِها وأوهامِها وخُرافاتِها ،

فجاء النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم يُعلِي كلمةَ اللهِ ، ويُعلن حَربَه عليها بطَريقتَين : بالإقناعِ و بالقُوَّة .

لقد أوضح لِلمُشرِكين أن الإله المَعبودَ يَجِب أن يكونَ أقوَى وأعظمَ ما فى الوُجودِ شأنا ، والأصنامُ لا تَسمعُ نِداء الدَّاعين ، ولا تُبصِرُ عِبادةَ العابِدين ، وكانت لا تَمنعُ مَن أرادَها بِسُوء .

ولما قَوِىَ أمرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، وانتَشرتْ دَعوتُه ، حَطَّم ما بَقِىَ من هَذهِ الأَصنامِ .

كان لقبيلةِ ثَقِيف صَنَمٌ يسمى « اللَّات » فلما جاء وَفْدُهم إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ليَدخُلوا الإسلام ، كان فيما طَلَبُوه منه أن يَترُكَ لهم هذا الصنمَ فلا يَهدِمَه قَبل ثلاثِ سَنوات ، فأَبَى النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم .

وعادوا يَسألونَه سَنَتَيْن ، ثم سنةً واحدةً ، والنبىُّ يَرفُض طَلبَهم فى كلِّ مرة ، ثم سألوه ألّا يُحطِّمُوهُ بأيديهم .

فقال النبيُّ : لكم ذلك ، وسَيَقُومُ المُسلمون بتحطيمِ الأصْنَامِ .

ولما رَجَع هذا الوفدُ إلى أرْضِهم ، أرسل النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم معهم « المُغيرةَ بنَ شُعبةَ » وأبا سُفْيانُ لِهَدم أصنامِهم .

وعندما وَصلوا مدينةَ « الطائف » تقدَّم « المُغيرةُ » لِهدمِها ، قال لأبي سُفيان :

أَلا تُريد أَن أُضحِكَكَ من هؤلاءِ القَوم ؟

فقال : بَلَى .

بَدأ « المغيرةُ بنُ شُعبةَ » يَضرِب صَنَم « اللاتَ » ، ثم تَظاهَر بأنه وَقعَ على الأرض .

فصاح أهلُ « الطائف » وقالوا : « اللّاتُ » صَرَعت المُغيرةَ وأقبلوا يقولون :

أَلم تَعلمْ أَنها تُهلِكُ مَن أَساء إليها ؟ فراح « المُغيرةُ » يَضحك منهم ، ويقول :

لقد تَظاهرتُ بالوقوعِ على الأرضِ للسُّخْريةِ منها ، وسأُحطِّمُها أمامَكم .

وراح يُحطِّمُها ، والعجائزُ من حَولِه تَبكي ، ثم أخذ « المغيرةُ » مالَها وحُليَّها ، وذَهب بها إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ليَضُمَّ تلك الثروةَ إلى مالِ المسلمين .

وكانت « العزَّى » من أعظمِ الأصنامِ عند قُرَيش ، وكانوا

يَزورونها ، ويَذبَحون الذَّبائح ، وكانت قريش تَطُوفُ بالكَعبةِ ، وتقول :

« اللات العزَّى ومَناة » .

ولم تَزَل « العُزَّى » صَنَماً يُعْبَدُ ، حتى جاء الرسولُ صلواتُ اللهِ عليه فَحَقَرها وسَخِر بها ونَهى قُريشًا عن عبادتِها ، ونَزَل القرآنُ الكريمُ يقول فى اللاتِ والعزَّى ومَناة .

« إنْ هى إلا أسماء سَمَّيْتُموها أَنتم وآباؤُكم ما أَنزل اللهُ بها من سُلطان » .

وإليكم هذه الحكاية التى تَدُلُّ على ما كان لها من تأثيرٍ على قريش :

لما مَرِض سَعيدُ بنُ العاص بن أُمَية مَرضَه الأخير ، دَخل عليه « أبو لهب » يَزورَه ويَسأَلُه عنه فوَجدَه يَبكى . فقاله أبو لهب :

ماذا يُبكيك يا سَعيد ؟ أمِن المَوتِ تبكى وهو أمرٌ لابدَّ منه ؟

قال لا . . . أخاف ألاَّ يَعبُدَ الناسُ « العُزَّى » بَعدِى .

قال أبو لهب :

اطمئن لن تترُكَ عِبادتَها بعدك .

فقال سعيدُ بن العاص :

الآن علمتُ أن لى خَلِيفةً يَهتمُّ بأمْرِها :

وعندما فتح النبيُّ صلى الله عليه وسلم مكةَ دخل المسجدَ والأصنامُ منصوبةٌ حولَ الكعبةِ ، فراح يطعَنُ عُيونَها ووجوهَها بسَيفِه ، ويقول :

« جاءَ الحقُّ وزَهَقَ [1] الباطلُ ، إن الباطلَ كان زَهُوقا » .

وأمر خالدَ بنَ الوليد أن يحطِّم بعض هذه الأصنام ، فرجع بعد أن حطّم العُزّى يقول :

لن تُعبَدَ « العُزّى » بعد اليوم .

هكذا كان النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم يُرسل أصحابَه إلى أصنامِ العربِ فيُحطِّمونها ويُحرِقونها ، وكان بعضُ العربِ يكسِرُ صَنَمه ويَذهَب إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم فيُعْلِنُ إسلامَه .

وهكذا قضى على الأصنام ، وتخلصَ العربُ من عبادتِها ، وتطهرت الأرضُ الطيبةُ من خرافاتها .

---

(1) زهق الباطل : هلك ، زال

وبذلِكَ خَلَت مَعابِدُها من الكُهّانِ الذين كانوا يرْكَعُون لها وَيسجُدون .

وانقَطَعت أقدامُ الزائِرين والحجاج الذين كانوا يتقربون إليها ، وَيقِفون أمامَها فى خشوعٍ وذِلة ، وأُطفِئَت من حولِهَا الشُّمُوع ، وزَال دُخَانُ البخُور ، ولم تَعُدْ ذبائحُ تُذبَح ودماءٌ تُراق ، ورِحَالٌ تُشَدُّ إليها ، فقد ذَهب سُلطانُها ، وضاعت عِزَّتُها ، فلا إجْلاَل لها ولا احْترام ، وعرف الناس أنها كانت وَهْما وخُرَافة .

لقد كانت مما يُحقِّر الإنسان ، ويَجْلِبُ له العَار ، لأنه كان يَعبد أحْجَارًا لا تَضرُّ ولا تَنفَعُ ، ولا تَبصِرُ ، ولا تَسمعُ ، ولا حَولَ لها ولا قُوة .

وبتَحْطيمها تَحرَّرت العُقُولُ من سُلطانها ، واتَّجهت النُّفوسُ إلى عِبادَةِ اللهِ الواحِدِ القَهّار .

نبيُّ الإسلامِ منقذَ الأرقاء

كان الرِّقُّ مُنتشِرًا فى جميعِ أنحاءِ العالَمَ ، ولم تَستطِع مَدَنِيَّةُ الرُّمانِ ، ولا فَلسَفةُ اليُونانِ ، ولا حِكمَةُ فَارِسَ ، أن تُلغِىَ هذَا النِّظامَ الفَاسِدَ الظَّالِم .

كان الإنسانُ الرَّقيقُ ذَليلا ، لا يَأكُلُ مع سَيِّدِه ، ولا يَستطِيعُ أن يَمشِىَ بجانِبه أو يَجلِسَ بجوارِه .

كان الرقيقُ مُحتَقَراً ، ولاقيمةَ له عند سيِّده ، إن شَتَم حُرا قُطِعَ لِسانُه ، أو أُدخِلَ فى فَمِه خِنجَرٌ مُحَمَّى ، وإن سَرَق سَيِّدَه أحْرَقَهُ ، وكثيرا ما كان يَجْلِدُه ، أو يَكوِيه بِالنار ، أو يُعَلِّقه بالطَّاحونة لِيُديرَها ، لِأَقَلِّ الأَخطاءِ والأسباب .

وكان الرَّقيقُ لا يَستطيعُ أن يَتزَوَّجَ من الأَحرار ، وكانت الحُرَّةُ التى تَتزوجُ عَبْدا تُستَعبَدُ ، وكذلك الحرُّ إذا تزوج عَبدةً يُعامَلُ وَلَدُه منها مُعامَلةَ العَبيد .

وكانت شهادةُ العبيدِ لا تُسمَع ، وكان لا يؤخَذُ رأيُه فى وَضعِ قانونٍ أو نِظام ، ولا حَقَّ له أن يَتكلَّمَ فى أىِّ مَوضوعٍ يَهُمُّ الأَحرار .

وكان اليونانيون والرومانيون فيما مضى يعدون الأمم المغلوبة عبيدا ، وكان بعض شعوب القوقاز قديما يتخطفون النساء والأطفال ليباعوا فى سوق الرقيق .

وفيما يلى صور من معاملة العبيد ، وكيف استطاع المسلمون إنقاذهم مما هم فيه من بلاء .

كان بلال بن رباح عبدا لأمية بن خلف ، آمن بمحمد — صلى الله عليه وسلم — وجاهر بإسلامه فكان أحد سبعة أظهروا إسلامهم فى فجر الدعوة . . رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبو بكر ، وعمار بن ياسر ، وأمه سمية ، وصهيب . وبلال ، والمقداد .

وعز على أمية بن خلف أن يسلم عبده ، وأن يخرج عن دينه ، وتكون له إرادة حرة فيما يعتقد ، فأمره أن يعلن كفره بمحمد ، ولكن بلالا كان قد ذاق حلاوة الإيمان ولذة الحرية فيما يدين به ، فأصر على إسلامه ، ووقف يتحدى سيده . .

وأمر أمية بأن يؤخذ بلال ظهر كل يوم ، فيطرح عاريا وتوضع على بطنه الصخرة العظيمة ، ثم تهوى عليه السياط ، ومع ذلك كان يهتف : أحد أحد . .

وَيمرُّ به أميةُ وهو على هذه الحالِ فيقول له شامتاً مُتوَعداً :

— لاتزال هكذا ياعبدَ السوءِ حتى تموتَ أو تكفرَ بمحمدٍ .

وَيمر به « وَرقةُ بنُ نَوفلٍ » وهو فى هذا العذابِ فيقولُ لِأمية :

— أقسِمُ ياأميةَ لو أن عَبدك بلالا هـذا مات ، وهو يُعذَّبُ من أجلِ ما يؤمِنُ به ، لأَجْعَلَنَّ له قبرا كَقُبورِ الشهداء والقِدِّيسين !

وهذه « سُمية » تتعرضُ هى وزوجُها ياسرٌ وابنُها عمارٌ لِأشدِّ ألوان العذاب ، ويمرُّ بهم أبو جهلٍ مَغيظا مُحْنَقا فيطعنُها فى موضعِ العفة برُمْحِهِ حتى تموت !

ولهذا وَضَعَ أثرياءُ المسلمين خطةً لإنقاذِ حياةِ مَن أسْلَمَ من العَبيدِ ، بِشِرائهم من سَادَتِهِم بأغْلَى الأثمان .

وكان أولهم وأكثرهم سخاء أبو بكر الصديق ، فقد ذهب إلى أميةَ بن خَلف يَعرِضُ عليه أن يَشترى بلالا ، وكان أمية قد فَشِل فى فى حَمله على الكفرِ بعد الإيمان .

وَطالب أميةُ من أبى بكر خمسَ أوقياتٍ من الذهبِ ثمنًا لبلال ، ولم يُساوِمْ أبو بكرٍ ، فدفع إليه الثمن .

قال أمية : يا أبا بكر ، لو أبَيْتَ إلا أوقيةً لبعناك !

فأجابه أبو بكر وهو يَحلُّ وِثاقَ بلال . لو أبيتم إلا مائةَ أوقية لأخذته ! .

وأعتقَ أبو بكر بِلالاً وردَّ إليه حُرِّيتَه ، ثم اشترى وأعتقَ غيرَهُ مِنَ العبيد . .

وكذلك فعلَ غيرُه مِن أثرياء المسلمين . . إنهم ليتسابقونَ فى تحريرِ الرَّقيقِ ، يحررُ أبو بكرٍ ستًّا من الجوارِى والعبيد ، ويحرِّرُ عبد الرحمن بن عَوفٍ ثلاثين . . وهكذا حتى استردَّ كثيرٌ من الأرِقَّاء والبَغايا حُرِّيتَهم وكرامتَهُم فى ظِلِّ هذا الدِّينِ الجديد .

لقد أوصَى نَبينَا الكريمُ أن نُحسِنَ إلى الأرِقَّاء(١) ، فهم إخوانٌ لنا فى الدِّين ، وأمَرَنا أن نُحسِنَ مُعامَلَتَهم ، فنُطعِمَهم مِمَّا نأكل ، ونُلبِسَهم مما نَلبَس ، ولا نُكلِّفَهم فوْقَ قُدْرَتِهم .

وأباح الإسلامُ للرَّقيق أن يَشتَرِيَ نَفسَه من مَالِكه بِمالٍ يَدفَعُه له .

وحَكَم النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلّم على من عَذَّب مَملوكَه(٢) أو خَصاه أن يَعتِقَه أى يَمنَحه حُريتَه ، وجَعل عِتقَه كفَّارةً لِعَمله ، أى يُكفِّرُ

---

(١) الأرقاء = العبيد . (٢) مملوكه : رقيق يملكه = عبده .

عن هذا الخطأ بأن يجعله حرًا .

ومن الوسائل التى اتبعها الإسلامُ ونبيُّه الكريم فى عدم نشر الرِّق أن جعل كفَّارة كلٍّ من قتل خطأ ، أو امتنع عن الصِّيام عمدًا ، أو حنث فى يمينه أن يعتق رقبةً [١] ـ أى يحررُ إنسانًا بشرائه من مالكه ، أو يُطلق سراحهُ إن كان مملوكًا أو عبدًا له ، وأن الجارية التى تلدُ لسيِّدها مولودًا تصيرُ حُرَّةً بعد موته ، ولا يجوز لسيِّدها أن يبيعها فى حياته .

جاء رجُلٌ يقولُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم : دُلَّنى على عملٍ يقرِّبُنى من الجنَّةِ ويُبعِدُنى من النار ، فقال النبي :

فكُّ رقبة[٢] .

وقال أيضًا يُعلِّم الناسَ مُخاطبةَ الرَّقيق :

« لا يَقُلْ أحَدُكم عبدِى . . أَمَتِى ، وليَقُلْ فتاىَ وفتاتِى » .

وجعل الإسلام ونبيُّه الكريمُ من أموال الزَّكاةِ إعانةَ المملوكِ الذى كاتبه سيِّدُهُ على دفعِ مالٍ مُقابل تحريره من العُبودية .

---

(١) عتق رقبة = تحريرها .

(٢) فك رقبة = تحريرها .

نبيُّ الاسلامِ مُحرِّرُ المرأة

كان تقديرُ الرَجلِ للمرأةِ فى الجاهليةِ تقديرا محصوراً فى أوضاعٍ خاصةٍ، تتَّصِلُ كُلُّها بالتَّقاليدِ وَالعاطِفَةِ والنَّعراتِ القَبَليةِ، كانوا ينظُرونَ إلى أمَّهاتِهِم نظرةَ احترامٍ. كانت المَرأة كأمٍّ موضِعَ إجلالٍ وَطاعةٍ من كُلِّ بنيها.

وَلكِنَّ المُجتمعَ الجاهِليَّ كان خِلواً من نظرةِ تقديرٍ شامِلٍ للمَرأةِ، فى كُلِّ حَيٍّ، وفى كُلِ قبيلةٍ، اللَّهُمَّ إلّا إذا استَثنَينَا هذا الإجماعَ العامَّ الذى يخلَعُ على الأُمِّ المُنجِبَةِ للرِّجالِ ثوبًا من التَّقديرِ الخاصِّ.

وَفى الوَقتِ نَفسِهِ كانت بعضُ القبائِلِ تنظُرُ إلى المَرأةِ نظرةَ ضَعفٍ وَاحتِقارٍ، إلى حَدٍّ أنهم مارسُوا عادةَ وَأدِ البنَاتِ.

وَلم يكُنْ وَأْدُ البنَاتِ عامًّا فى قبائِلِ العَربِ، بل كان مُنحصِرا فى بعضِ بنِى تميمٍ، وقبائِلَ قليلةٍ أخرى، إذ ظَهر فِيهم لِسبَبٍ طَرأَ عليهم.

كانوا يُؤدُّونَ الإتاوةِ[1] إلى النُّعمانِ مَلِكِ الحِيرَةِ فمنَعُوها سَنَةَ

(١) الاتاوة : الجزية

مِن السّنين، فجَرّدَ عليهم النّعمانُ كتائبَه، وساق أنعامَهم، وسَبَى ذراريهم، فعظُم ذلك على التّميميّين، فوَفَدُوا عليه يطلبون أهْلَهم وأموالَهم فأبَى النُّعمان فقالوا «أعطِنا النِّساء» فقال «إنّا نخيّرُهنَّ فى الذّهاب أو البَقاء. وأعلَن: أنَّ كلَّ امْرَأةٍ إن اختارت أباها رُدّتْ إليه، وإن اختارتْ صاحِبَها تُرِكَتْ له، فكلُّ واحدةٍ منهن اختارت أباها إلا ابْنَةَ قيْسِ بْنِ عاصمٍ، كانت قدْ أحبّتْ عَمْرو بْنَ الشمروخ، فاختارت البَقاء عِنده. فغضِبَ قيْسٌ ونَذَرَ ألّا تولَدَ له ابْنَةٌ إلّا قتلَها[1]. ورُبّما اقتدَى به بَعْضُ أهلِه أوْ أهْلِ قبيلتِه، وكان بعضُ العَرَبِ لا يُزوّجُ بناتِه، وأشهرُهُم ذُو الإصْبعِ العُدْوانِى، فكانت لَهُ أرْبَعُ بناتٍ منَعَهُنّ الزّواجَ وهُنّ يُرِدْنَهُ. جاءَ ذلكَ فى حَديثٍ طَويلٍ ذَكَرَهُ المُبرّدُ[2].

وبجانبِ هذه العَادةِ المَرْذُولةِ كانت بَعْضُ القبائلِ تُمارِسُ عادةً مُسْتَهْجَنَةً وهى حِرْمانُ المَرأةِ الميراثَ.

وبالجُملةِ فقَدْ بَقِيت المَرأةُ العَربيّةُ فى الجاهِليةِ بعيدةً كُلّ البُعدِ عَنْ مَجالسِ الأدبِ والأدباءِ والعِلمِ والعُلماءِ وعَنْ مِضمارِ السّياسةِ، والاشْتراكِ فى الإدارةِ والحُكمِ، وعَن مَيادينِ القِتالِ والجهادِ إلّا نادِراً.

ولمّا جاءَ نبيُّ الإسْلام بدَعْوتِه ورسالتِه المَجيدةِ تبدّلَ الحَالُ غير

(١) و (٢) الكامل للمبرد ص ٢٧٨

الحَالِ . لقد وَجَدت المَرأةُ فى هذا النَّبيِّ دِرْعاً حَامِيةً وَسَنَداً قَوِيًّا ، يُدافِعُ عن حُقوقِها ويَحمِى حُرِّيَّاتِها ، فَإذا هى تَشترِكُ فى الجيوشِ المُجاهِدَةِ ، وإذا هى تَغشَى مَجالِسَ الأَدبِ والأُدباءِ ومَواكِبَ الفَنِّ والفَنَّانِينَ ، وإذا برأيِها مَوضِعُ الإجْلالِ والتَّقديرِ عِند الوُلاةِ وَالحُكَّامِ والخُلفاء .

جاء هذا النبيُّ يقولُ للنَّاسِ : خِيارُكُمْ خِيارُكُمْ لِنسائِكُمْ

وَجاء يَقولُ :

ما أكْرَمَ النِّساءَ إلا كريمٌ ، ولا أهانَهُنّ إلا لئيمٌ .

وجاء يقول :

المرأةُ راعيةٌ فى بيتِ زَوْجِها ومَسئولةٌ عن رَعِيَّتِها .

لقد نادى النبي بحق المرأةِ المتزوجَةِ فى مُمَارَسة حُقُوقِها المدنية ، فلها أن تُدِيرَ بِنفسِها شُئونَها ومُمتَلكاتِها مُستَقلةً عن زوجها ، متى أرادت .

وَأَجازَ لها النَّبيُّ الاشْتِغالَ بالتِّجارةِ والصِّناعةِ ، وَلَيْسَ مِن حَقِّ الزَّوجِ مَنْعُها مِن ذلك ، خُصوصاً إذا كانَ الغَرضُ مُساعَدَتَه . وقد كانت تَختارُ من الصِّناعاتِ النَّسجَ والتَّطريزَ ، وَمِن التِّجارة السِّلَعَ الخاصة بالنساء .

كَانَتْ « أسماء بنت مخربة » تبيعُ العطورَ ، وكان بالمدينة امرأةٌ عَطّارةٌ تُسَمَّى « حَوْلاء بنت تُوَيْب » .

وكذلك باشرت السَّيِّداتُ المُتقدِّماتُ في السِّنِّ التِّجارةَ في مُختلفِ السِّلَعِ ، فقد تقدَّمت « قيلةُ الأنمارية » إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم تستفتيه في أنَّها تُساوِمُ في الشِّراء حتى تصِلَ إلى الثَّمنِ الذي حَدَّدَتْه وتشتري ، وكذلك في البَيْعِ ، فنهاها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، موجِّهاً إيَّاها إلى الشِّراء بالثَّمنِ الذي تُريدُ الشِّراءَ به والبَيْعِ بالثَّمنِ الذي تُحدِّدُه دُونَ مُساوَمَةٍ .

وَوَفَدَتْ أسماء « بنتُ يَزيدَ الأنصاريةُ » على النَّبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بَيْن أصحابه ، فقالت :

بأبي وأُمِّي يا رَسُولَ اللهِ ، أَنا وَافِدَةُ النِّساء إِلَيك . وَاعْلَمْ — نَفْسِي لَكَ الفِداءُ — أَنه مَا مِن امْرأةٍ كَانت في شَرْقٍ أو غَرْبٍ سَمِعَتْ بِخَرَجِي هذا أَوْ لَم تَسْمَع إلَّا وهي عَلَى مِثْلِ رَأْيِي . . . إن اللهَ بَعَثكَ إلى الرِّجالِ والنِّساء ، فآمَنَّا بكَ وَاتَّبعْنَاكَ . ونَحنُ مَعْشَرَ النِّساء مَحْصُوراتٌ مَقْصُوراتٌ قَواعِدُ بُيُوتِكم ، وَحَامِلاتُ أَولادِكم ، وأنكم معاشرَ الرِّجالِ فُضِّلْتُم عَلَينا بالجُمَعِ وَالجَماعاتِ وَعِيَادةِ المَرْضَى وشُهودِ الجَنائزِ والحجِّ بَعد الحَجِّ ، وَأَفْضَلُ مِن ذلك الجِهَادُ في سَبيلِ اللهِ ، وأن الرَّجلَ منكم

إذا خرج حاجاً أو مُعتمِرًا أو مُرابِطًا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم ، وربّينا لكم أولادكم .. أفما نشارككم فى هذا الخير يارسولَ الله ؟

فالتفتَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بوجهِه إلى أصحابه وقال لهم :

هل سمعتم مقالةَ امرأةٍ أحسنَ سؤالاً عن دينها من هذا ؟ .

فقالوا :

لا ، يا رسولَ اللهِ .

فقال صلى الله عليه وسلم :

انصرفي يا أسماء ، وأعلِمي مَن وراءكِ من النساء : أنَّ حُسنَ تبعّلِ(١) إحداكنَّ لزوجِها ، وطلبِها لمرضاته ، واتّباعها لموافقته ، يعدلُ كلَّ ما ذكرتِ .

فانصرفت أسماء وهي تُهلِّلُ وتُكبِّرُ استبشاراً .

وقد عزَّ على نساءِ العربِ أن يَمنحَ النبيُّ الرِّجالَ وحدَهم كلَّ وقتِه فسألنه أن يختصَّهنّ بيومٍ ، فأجابهنَّ إلى طلبهن ، وحدّد يوماً لهن ، يجلسُ إليهنَّ ، يهدِي الحائرةَ ويُجيبُ السائلةَ .

واستأذنَ عليه عمرُ بنُ الخطّابِ وهنَّ بين يديهِ ، فابتدرنَ

---

(١) تبعل : ملاعبة ومداعبة ورعاية

الْحِجَابَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عُمَرُ ، تَبَسَّمَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم . فقال عمر :
بِأَبِي وأُمِّي أَنتَ يارَسُولَ اللهِ مايُضْحِكُكَ ، فقال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: رَآكَ النِّسَاءُ فابْتَدَرْنَ[1] الْحِجَابَ . فَالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَيْهِنَّ وقال:
يَا عَدُوَّاتِ أَنفُسِهِنَّ ، تَهَبْنَنِي وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللهِ ؟
وَقُلْنَ : أَنْتَ أَغْلَظُ مِن رَسُولِ اللهِ[2] .

وَلَمَّا أَراد رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الْخُروجَ إِلَى غَزْوَةِ خَيْبَر ، تَقَدَّمت إليه السَّيدةُ « أمُّ سِنَان الأسْلمية » وقالت :

يَا رَسُولَ اللهِ ، أَخْرُجُ مَعكَ أُداوِى المَرِيضَ والْجَرِيحَ إِنْ كَانت به جِرَاحٌ .

فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :

اُخْرُجِي عَلَى بَرَكَةِ اللهِ ، فَإِنَّ لك صَوَاحِبَ قد كَلَّمْنَنِي وأَذِنتُ لهن من قَومِك وَمِن غيْرِهم .

* * *

أَمَّا حَيَاتُه صَلَّى اللهُ عليه وسلم فى بَيْتِه وَبَين نِسَائه ، فقد كَانت المَثَلَ الأَعْلَى فى المَوَدَّة وَالْوَدَاعَةِ ، وَتَرْكِ الكُلْفَةِ ، وَبَذْلِ المَعُونَةِ ، وَاجْتِنَابِ هُجْرِ الْكَلام وَمُرِّه .

وسُئِلت عَائِشَةُ : ماذا كَانَ عَمَلُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فى بَيْتِه ؟

---

(١) ابتدرن الحجاب : أسرعن إلى الستر (٢) القسطلانى ج ٥ — ٥ .

فقالت : كان فى مِهْنةِ أَهْلِه حَتَّى يَخْرُجَ إلى الصَّلاةِ ، تُرِيدُ بذلك أنه كان يُعاوِنُهنَّ وَيَعملُ مَعهن .

وكان مِن التَّبَسُّط وَرَفعِ الكُلفةِ إلَى حَدٍّ أن يَسْتبِقَ هو وامْرَأتَه .

وكانت فاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ تَتَوَلَّى الطَّحْنَ وَالْعَجنَ عَلَى حِين كان عَلِىٌّ رَضِىَ اللهُ عنه يَنْزِعُ الماءَ وَيَحْتَمِلُه وَيُهيِّئُه .

وَقَدْ اعْترف الُمستشرِقُ الفَرنسِىُّ « أَندريه سُرفيه » بِفَضْلِ هَذَا الرَّسُولِ فى كِتَابِهِ « الإِسْلَامُ وَنَفْسِيةُ الُمسْلِمِينَ » فقال :

لا يَتحَدَّثُ هَذَا النَّبِىُّ عَنْ الْمَرْأَةِ إِلّا فى لُطفٍ وَأَدبٍ . . . كان يَجتهِدُ دائمًا فى تَحسِينِ حَالِها وَرَفعِ مُسْتَوى حَيَاتِها . . . لقد كانَ النِّسَاءُ قَبلَه لا يَرِثْن ، بل كُنَّ مَتَاعًا يُوَرَّثُ لِأقربِ الرِّجالِ ، وَكَأنهن مَالٌ أَوْ رَقِيقٌ . وَعِنْدمَا جاء الرَّسُولُ قَلبَ هَـذِهِ الْأَوْضَاعَ ، فحرَّرَ المَرأةَ وأَعطاها حَقَّ الإِرْثِ » ، ثم خَتم كَلِمَتَه قائلا :

« لقد حَرَّرَ مُحمدٌ الْمَرْأَةَ الْعَرَبِيَّةَ ، ومَن أَراد التَّحقِيقَ بِعنَايَةِ هذا النَّبِىِّ بالمرأةِ . فلْيَقْرَأْ خُطْبَتَه فى مَكَّةَ التى أَوْصَى فيها بِالنِّساء خَيْرًا وَلْيَقرأْ أَحادِيثَه المُتبَايِنَة » .

مَا أَصْدَقَ هَذَا الْقَولَ ... وَمَا أَكْثَرَ دِفَاعَ النبىِّ عَنْ الْمَرأةِ وَحُقُوقِها .

أَلَمْ يَقُلْ فِى خُطبته التى أَلقاها فى حجة الْوَداع ؟ :

« إنَّ لِنسائكم عليكم حَقًا وإن لكم عَليهن حَقًّا ، لكُم عَليهنَّ أَلا يَقْرُبَ فرشكم غَيْرُكُمْ ، وَلاَ يُدْخِلنَ أَحَداً تكرهُونَه بُيوتكم إلا بإذنكم ، وَلاَ يأتينَ بفَاحشة ، فإنْ فعلْنَ فإن الله قد أذن لكم أن تهجُرُوهُنَّ فى المضاجع ، وَتَضربُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّح ، فَإنْ انتهَيْن وَأَطَعْنكم فعليكم رزْقُهُنَّ وَكِسوتهن بالمعروف ، وإنما النّساء عندكم عَوَانٍ لا يملكن لأنفُسِهِنَّ شَيْئًا ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانةِ اللهِ وَاستحْلَلْتُم فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ، فَاتَّقُوا اللهَ فِى النّساء وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا .

أليس هو القائلَ أيضاً ؟

« يَا بُنَيَّ إذا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّم ، وليَكُن سَلاَمُك بَرَكَة عَليك وَعَلَى أَهْلِكَ » .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ « إنى لأَتزَيَّنُ لِامْرَأَتِي كما أُحِبُّ أَن تتزَيَّنَ لى » .

وَعَنِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها ، أَنَّ فَتَاةً قالت لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : إن أَبِي زَوَّجني مِن ابْنِ أَخيه يَرفعُ بى خَسيسته وأنا كَارِهَةٌ ، فأرسل النبيُّ إلى أبيها فجَعَلَ الأَمْرَ إليها : فقالت يَارَسُولَ اللهِ إنِّي قَدْ أَجَزْتُ ما صَنَعَ أَبى ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أن أُعلِمَ النّساء أنْ ليس لِلآباءِ من الأمرِ شَيْءٌ .

وَمِن أعجبِ المُصادفاتِ أن يجتمعَ المُؤتمِرُون فى أوربا فى زَمَنِ النَّبىِّ فى سنة ٥٨٦ ميلادية لِبَحث : هَلِ المَرْأَةُ إنسانٌ ؟ وَبعد بَحثٍ وَمُناقشةٍ وجَدلٍ ، قَرَّرُوا أنها إنسانٌ ولـكن خُلِقت لِخِدْمةِ الرَّجلِ وَحدَه ... ولم يَـكدْ يَصْدُرُ هذا القَرارُ الجائرُ فى أوربا حتى نَقَضَه مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فى بلادِ العَربِ إذ رَفعَ صَوْتَه قائلا :

(إنما النِّساءُ شَقائِقُ الرِّجالِ) .

بل قال لِلرِّجالِ :

أَلَسْتُم حَرِيصِينَ عَلَى دُخولِ الجَنّةِ ؟ هَذِهِ الجنةُ التى تَحرِصُون عليها هى تحت أقدامِ الأُمّهاتِ ، وكُلُّ امْرأَةٍ أُمٌّ .

وبذلك عَلَّمَ العالمَ أجمعَ أنَّ المَرْأَةَ إنسانٌ مُهذَّبٌ ، له من الحُقُوقِ ما لِلرِّجالِ من حُقوقٍ فى وقتٍ كانت أوربة تَنظُرُ إلى المَرأةِ نَظْرَةَ سُخرِيّةٍ وَاحْتِقارٍ .

وَفِى القَرنِ السَّابعِ الميلادىِّ عُقِدَ مُؤتمرٌ عامٌّ فى رُوما بَحَث فيه المجتَمِعون شُئونَ المَرْأةِ ، فَقرَّرَ المُؤتمِرُ أنها كائنٌ لا نَفْسَ له . . . وَعَلَى هذا فَلَيس لها الحَقُّ فى أَنْ تَرِثَ الحَيَاةَ الآخِرَةَ .

وَوَصَفَها هذا المُؤتمرُ أيضاً بأنها رِجْسٌ كَبيرٌ، وَفَرَضَ عليها أَلَّا تأكلَ اللَّحمَ وَأَلَّا تَضحَكَ وأَلا تَتكلمَ ...وَنادَى بَعضُهم بِوَضعِ أَقفالٍ على فَمِها .

وفى هذا الوقت كانت المرأة العربية تأخذ طريقها نحو النور وتحتل مكانتها الرفيعة فى المجتمع العربي ، وتقف بجانب الرجال فى معترك القتال .

لقد قالت الربيع بنت معوذ :

« كنا نغزو مع رسول الله ونسقى القوم ونخدمهم ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة » .

وعن أم عطية الأنصارية قالت :

« غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى » .

فمن بعد هذا كله يكابر ولا يعترف لهذا النبي العظيم بأنه أول من نادى بتحرير المرأة ؟

ومن بعد هذا كله لا يعد هذا النبي الكريم منقذ المرأة من الذل والطغيان والعبودية ؟

ألا يحق بعد هذا كله أن يصف «أندريه سرفيه» نبينا الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها ؟

ألا يحق بعد هذا كله أن يصفه بأنه نصير المرأة !

ألا يحق بعد هذا كله لمسيو « ريفيل » أن يقول بدوره ؟

« إننا لو رجعنا إلى زمن هذا النبيّ لما وجدنا عملا أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول، فالنساء مدينات لنبيّهن بأمور كثيرة رفعت مكانتهن بين الناس » .

وهذا أيضاً هو مادفع العالم الألماني « دريسمان » أن يسجّل قوله :

« لقد كانت دعوة محمد إلى تحرير المرأة السبب في نهوض العرب وقيام مدنيّتهم . . وعندما عاد أتباعه وسلبوا المرأة حقوقها وحرّيّتها كان ذلك من عوامل ضعفهم واضمحلال قوّتهم .

وقد كتبت جريدة المونيتور(١) الفرنسية تصوّر احترام الإسلام ونبيّه للمرأة فتقول :

« لقد أحدث الإسلام ونبيّه تغييراً شاملاً في حياة المرأة في المجتمع الإسلامي . . . فمنحها حقوقاً واسعة تفوق في جوهرها الحقوق التي منحناها المرأة الفرنسية »(١) .

---

(١) هذا الحديث من مائة سنة فقط .

نبيُّ الإسلامِ المعلمُ الأول

لم يَسبق الإسلامَ دِينٌ شَجَّع العِلمَ ، وأشاد بفضلِ العلماء كما فعل الدِّينُ الإسلاميُّ ، ويَكفِي دليلاً على ذلك أنَّ أولَ ما نَزل من القرآنِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم هو قولُ اللهِ تعالى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (١) » .

وفى بِدايةِ الدَّعْوةِ إلى الإسْلامِ بَدأَ النبيُّ يَلتقِي سِرًّا بمَن آمَنُوا به فى بيتِ الأرقم بنْ أبي الأرقم ، يُعلِّمهم ما نَزَل من كتابِ اللهِ العزيز ، فكان المعلمَ الأولَ ، وكان بيتُ الأرقمِ مدرسةَ المؤمِنين الأَوائلِ .

وعِندما أعلنَ دعوتَه للإسلامِ جَهرا أمامَ كلِّ الناس ، بَدأت تنتقِلُ إلى كلِّ مَكان ، فكان يُعلِّمُهم فى المَسجدِ والحجّ والطريقِ وفى كلِّ لقاء ، يشرحُ آياتِ ربِّه ، ويوضِّحُ أحكامَه وتعاليمَه ليُنيرَ لهم الطَّريقَ ، طريقَ الدُّنيا والآخِرة .

وتمضى الأيامُ والأعوام ، واللهُ يُنزِّلُ آياته ، ويجمعُ النبى المعلمُ قومَه ويتلو عليهم ما أنزله اللهُ من القـــــرآن ، فيحفظونه ويعملون به .

ويُقبِلُ الناسُ على هذا النبىِّ المعلِّمِ ليتعلَّموا على يديه ، وهم مُشتاقون إلى الجُلوسِ أمامَه والتحدثِ معه ، إذْ كانَ سَمِحَ الوجهِ ، فصيحَ اللسان ، حُلوَ الحديث ، حسَنَ المُعامَلة ، عليه المهابةُ والوَقار ، وهذا مِمّا جَعَل له شخصية المعلم النَّاجِح المحبوبِ الذى يَجذِبُ إليه القلوبَ والأسماعَ جميعا .

وفى خُطْبة من خُطبِ النبىِّ المعلِم لامَ فيها الأشْعريِّين « وهم من العُلماء والفُقهاء وجيرانُهم الأعرابُ غيرُ فُقهاء بأمورِ دينِهم ، وأمَرَ العُلماءَ والفقهاءَ أن يُعلِّمُوا ، وأمَرَ الأعْـرابَ أن يتعلَّمُوا ويتفقهُوا .

ولما عَـلِم « الأشعريون » بذلك قالوا :

أمْهِلنا سنةً يارسولَ الله ، فأمهَلهم سنةً ليُفقِّهُوهم ويعلّموهم .

من هذهِ القصةِ ترَى أن النبىَّ المعلمَ لم يُقرّ قوما جُهلاءَ بجانب قوم مُتعلِّمين فقهاءَ ، واعْتَبر بقاءَ الجاهِلين على جَهْلِهم ، وامتناعَ

المتقاعسين عن تعليمهم عصيانا لأوامر الله وشريعته ، وأعلن العقوبة على الفريقين حتى يسرعوا إلى التعليم والتعلم ، وأعطاهم مهلة عام للقضاء على آثار الجهل والأمية المنتشرة بين الكثيرين منهم .

وإن كانت هذه الحادثة حدثت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء ، فإن النبي المعلم أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة ، وبذلك وضع النبي أول نظام لمكافحة الأمية قبل أن تفكر فيه الدول المتقدمة .

وَقَدْ دَعَا الرَّسُولُ الكَرِيمُ إِلَى التَّعْلِيمِ فَقَالَ : طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ .

وَقَالَ : « مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ أَرَادَهُمَا مَعًا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ » :

ولأهمية العلم في الحياة دعا النبي المعلم إلى المزيد من العلم . وكان دائمًا يردد قول الله تعالى :

« وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا[1] » .
« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا[2] » .

---

(١) الإسراء : ٨٥ .   (٢) طه : ١١٤

« وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ [١] » .

وكان عليه الصَّلاة والسلام عَلِيماً بالنُّفوس ، خَبِيراً بأحْوالِها ، يَتدرَّجُ فى هِدَايتِها وتَعليمِها وإرْشَادِها حتى تَقتنِعَ بما يَقول :

وكان يُعلِّمُ الناسَ مُسْتَرشِداً بقول الله تعالى « اُدعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والمَوعظةِ الحَسَنة » .

وكانَ فى تَرْبيتِه لأولادِه ، وَتعهُّدِه لأُسرتِه ، وتنشِئتِه لِلأُمَّةِ الإِسْلاميةِ خَيْرَ مِثَال وقُدْوةٍ ، فقد كانَ عَطُوفًا على الأطفال ، يُلاعِبُهم ويُداعِبُهم ، وَيَدْعُو إلى الْحُنُوِّ عليهم والتلطُّفِ معهم .

رُوِىَ أَنَّهُ كانَ يُصلِّى بالنّاسِ ، فجَاءَ حَفِيدُه الحُسيْنُ ورَكِبَ عُنُقَهُ وهُوَ ساجِدٌ ، فَأَطَالَ السُّجُودَ حتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ قدْ حَصَلَ أَمرٌ ، فَلمَّا قَضى صَلاَتَهُ قالوا قَدْ أَطَلْتَ السُّجُودَ يارَسُولَ اللهِ حتَّى ظَنَنَّا أَنْ قدْ حَدَثَ أَمْرٌ ، فقال : إنْ حَفِيدى قَدِ ارْتَحَلنى ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حتى يَقْضِيَ حاجَتَهُ . ورَأَى أحدُ الصَّحابةِ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يُقَبِّلُ الحَسَنَ فقال : إنَّ لِى عَشَرَةً أَوْلادٍ ما قَبَّلْتُ واحِدًا مِنْهُمْ — فقَالَ عليْهِ الصّلاَةُ والسّلاَمُ إِنَّ مَنْ لايَرْحَمُ لايُرْحَمُ .

---

(١) يوسف ٧٦ .

نبي الاسلام كطبيب

إذا كان الغذاء هو الأساس في بناء الجسم وتجديد نشاطه وقواه، فهو — في الوقت نفسه — من أسباب ضعفه ومرضه، وليس في جسم الإنسان ماهو أضر به من إدخال الطعام على الطعام وازدحام المعدة به. فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

فالشبع الزائد داعية إلى التخمة[1]، والتخمة داعية إلى المرض، والمرض داع إلى الموت.

والإفراط في تناول الطعام يؤدي إلى سمن زائد، يعوق الحركة، ويثقل البدن، فيستولى عليه الكسل، فلا ينشط إلى عمل، ولا يسرع إلى واجب.. هذا عدا ما يتعرض له من أمراض خطرة.

والمعدة مع كونها أكثر الأعضاء إجهاداً أو قياماً بالعمل، فهي ضعيفة الأجزاء، رقيقة الأنسجة، فإذا أجهدت أكثر من اللازم، أو حملت فوق قدرتها، أسرع إليها العطب، وأصابها الضعف والمرض، ولا خير في حياة ينغصها المرض، ويكدر[2] صفوها الألم.

وكثرة الطعام والشراب تزيد العبء الملقى على القلب، كما تضغط المعدة الممتلئة عليه، فيزداد إجهاداً وإرهاقاً.

---

(١) التخمة ما يصيب الإنسان من الإفراط في تناول الطعام

(٢) يكدر : يعكر .

وقد أجمعَ العُلماءُ الأطباءُ أن خيرَ وقايةٍ من هذهِ الأمراضِ هو الاعتدالُ في الطَّعامِ، وقالوا :

« المعدةُ بيتُ الدَّاء والحِمْيةُ رأسُ الدَّواء » .

وإذا كان العُلماءُ قد توصَّلوا إلى هذه النتيجةِ العلميةِ في القرنِ العشرين، فقد سبقَهم نبيُّنا الكريمُ بقوله :

« لا تُميتُوا القلب بكثرةِ الطَّعامِ والشراب، فإن القَلْبَ كالزَّرع يموت إذا كَثُرَ عليه الماء » .

وقال أيضاً : « ما مَلأ ابنُ آدمَ وعاءً شراً من بَطْنِه » .

لقد أرسل المُقَوْقِسُ حاكمُ مِصرَ إلى النبيِّ محمد صلَّى الله عليه وسلَّم بهدايا ثلاث : جارية وفَرَس، وطبيب، فقَبِلَ النَّبي الهدية الأولى والثانية، وردَّ الثالثة شاكراً قائلا : « نحن قومٌ لا نأكلُ حتى نجُوع، وإذا أكلنا لا نَشْبَعُ » .

وكان قوله حكمةً خالدةً، ونصيحةً طبيةً غاليــة، تبقى ما بَقِيَ الزمن .

والمَضارُّ الكثيرة التي يُسَبِّبها الإفْرَاطُ في تناولِ الطَّعام هي التي جَعَلَت سيدَنا عمرَ بن الخطَّاب يقول للناس :

« إياكم والبِطنة(١) فإنها مَكسلة(٢) للصلاة ، ومَفسدة للجسد ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقَصد فى قوتِكم ، فهو أبعد من السَّرف وأصح للبَدَنِ ، وأقوى على العِبادَةِ » .

وكان الرسولُ يُحِبُّ النظامَ وحُسنَ المنظرِ والرائحة الطيبة ، وكان يكرهُ المَنظرَ القبيحَ والرائحةَ الكريهة والنظامَ السيِّء ، ولهذا قال :

« إنَّ الله طَيِّبٌ يُحِبُّ الطيِّبَ ، نَظيفٌ يُحِبُّ النَّظافَةَ ، كريمٌ يُحِبُّ الكَرِيمَ ، جَوادٌ يُحِبُّ الجَوادَ(٣) ، فنَظِّفُوا أَفنِيتكم(٤) ، ولا تَشَبَّهُوا بِاليَهُود » .

جَاء رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ مُغْبَرَّ الشَّعرِ ، غَيْرَ مُنْتَظِمِ الرَّأسِ وَاللِّحيَةِ ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ بِإصلاحِ شَعرِهِ ففَعَلَ ، ثُمَّ رَجَعَ ، فقَالَ النَّبِيُّ :

« أَلَيْسَ هٰذَا خَيْرًا مِنْ أَن يَأْتِيَ أَحَدُكُم ثَائِرَ الرَّأسِ(٥) كَأَنَّهُ شَيطَانٌ ؟ » وَرَأَى الرَّسُولُ رَجُلًا عَلَيْهِ ثِيَابٌ قَذِرَةٌ ، فقَالَ :

« أَمَا كَانَ هذَا يَجِدُ ما يَغسِلُ ثَوْبَهُ » ؟

* * *

---

(١) البطنة : الامتلاء الشديد من الطعام .

(٢) مكسلة : تسبب الكسل وتعدل عن القيام بالصلاة .

(٣) كريم .   (٤) فناء الدار : ما امتد من جوانبها .

(٥) ثائر الرأس : شعره غير منتظم .

وانتقلت هذه النَّدوةُ العِلْمِيةُ بعد ذلك إلى موضوع تزاوُج الأقارب ومَساوئه : ومرّت الساعاتُ وهم يُناقِشُون هذا الموضوع ، وأخيراً التفت إليهم عالم مصريٌّ وقال :

ما جِئتُم بجديدٍ أيضاً .

فقالوا له : كَيف ؟

ما قُلتُموه الآن قاله نبي الإسْلاَم مِن قَبلِكم ... أليس هو القائل « اغترِبُوا ولا تُضْوُوا »[1] .

أي لا تتزاوجُوا بين الأقارِب ، لئلا تَضْوَى[1] أولادُكم . فإن أولادَ الغَريبةِ أنجَبُ وأقوَى ، وأولاد القريبةِ أضعفُ وأضوى .

---

(١) تضووا : تضعفوا

نبيُّ الاسلام كرئيس أمة ودولة

قامت أمةُ محمد صلّى اللهُ عليه وسلم ، تحكمُ أمورَها بكتابٍ إلهيٍّ ، لا يأتيهِ الباطلُ مِن بينِ يديْهِ ولا مِن خلفِه ، يخضعُ لأحكامِه وتعاليمِه الحاكمُ والمحكومُ ، والسيّدُ والعبدُ ، والذّكرُ والأنثى ، والكبيرُ والصّغير ، والعظيمُ والحقير ، قامت دولةُ محمدٍ على الحريةِ والإخاء والمُساواةِ والأخلاقِ الفاضلة ، لا على الحاجاتِ المادّيةِ والمعيشية فحَسْب .

لهذا السبب جمعت أمّةُ محمدٍ صلّى اللهُ عليه وسلم بينَ أجناسٍ متفرّقةٍ وشعوبٍ مُختلِفةٍ في اللّونِ واللّغةِ والعاداتِ والتّقاليد ، لا يَربطُها إلا المبادئُ الصّحيحة والأَخلاقُ الكريمةُ .

وقد أشار الله تباركَ وتعالىَ إلى ذلك كلّه بقولِه :

« يَأَيُّهَا الناسُ إنّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأُنْثى ، وجَعَلْناكُم شُعوبًا وقَبائِلَ لِتعارَفُوا ، إنّ أكرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُم » .

وقال النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم .

« لا فَضلَ لعربيّ على أَعْجميٍّ إلاّ بالتَّقْوَى » وقال :

« كُلُّكُم مِن آدَمَ وآدَمُ مِن تُرابٍ » .

أَلَمْ يُوَلِّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلّم « بِلالاً » على « المدينةِ » وفيها أكابرُ القومِ من الأنصارِ والمُهاجرين ، وهو عبدٌ حبشيٌّ اشتراهُ أبو بكرٍ وأعتقه ؛

أَلَمْ يَجْعل النبيُّ عليه الصلاة والسَّلام « مَهْرانَ الفارِسيَّ » والياً على اليَمنِ وهو فارسيُّ الأَصلِ ، ولما ماتَ وَلَّى ابْنَه من بَعدِهِ ؟ وقد جَرَى أصحابُ النبيُّ وأَتْباعُه على هذهِ السُّنَّةِ ، وكان حُكَّامُ الولاياتِ من أكثرِ الناسِ صَلاحاً وإخْلاصاً وَعدلا .

كان العَدلُ في مُحمدٍ هو الأصلُ والأَساسُ ، فالنَّاسُ أمامَه مُتَساوُون كأَسْنانِ المُشْطِ .

وكان النبيُّ عليه الصلاة يَستمِدُّ سياسَتَه من قولِهِ تعالَي :

« وإذا حَكَمْتُم بَينَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ[1] » .

وحث النبيُّ مِراراً وَتَكْرَاراً على العدلِ في الحُكمِ قائلا : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القِيامَةِ مَن أشْرَكَهُ اللهُ في سُلطانِه ، فَجَارَ[2] في حُكمِهِ » .

وفي قوله : « ما مِن أَحدٍ يَكونُ على شَيءٍ من أُمورِ هَذهِ

---

(١) سورة النساء

(٢) جار : ظلم

الأُمَّةِ فلم يَعدِلْ فيهم إلا كَبَّهُ[1] اللهُ في النارِ » .

وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلّم والخلفاءُ الرَّاشِدون مِن بَعْدِه ، مَثَلاً عالياً في تحقيقِ العَدلِ ، كانوا يَعدِلون بين الناسِ حتى مَع أنفُسِهم .

حَدث أن طَالب رَجلٌ دَيْنَه من الرسول ، فأغْلظَ له القول ، فهَمَّ عُمَرُ ابنُ الخطَّاب أن يَضرِبَ الرَّجلَ لِغلْظَتِه مع الرَّسول ، فقال له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم :

يا عُمرُ ، كنْتُ أحوجَ إلى أن تأمُرَني بوَفاء الدَّيْن ، وكان هو أحوجَ إلى أن تأمُرَه بالصَّبر .

وسَار الخلفاءُ الرَّاشِدُون على النَّحو الذى سَار عليه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلّم ، فكانوا أيضاً مِثالا حَسَناً للحاكِم العادل .

شَكا إلى عُمَر بنِ الخطابِ فتًى مِن مِصر ، إذ سَبَقَت فرسُه فرسَ عَمرِو بنِ العاصِ وَالِي مِصر ، فاغتاظَ فضرَبه بالسَّوْط ، وقال له :

خُذْها وأنا ابنُ الأكرَمِين .

وذهب المِصرى إلى الخليفةِ لِيَشكو ، فَاسْتدْعَى عُمَرُ بنُ الخطابِ عَمْرًا وَابنَه مِن مصر ، وأمر المصريَّ أن يَضربَ ابنَ عَمرٍو كما ضَرَبَه

---

(١) كبه الله فى النار : رماه وألقى به فيها .

وأنب عمرا، لأن ابنه لم يفعل ما فعل إلا اعتمادا على سلطة أبيه. وقال كلمته التاريخية العظيمة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟.

ويُروَى عن السيدةِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: أن قُريشاً أرادت أن يَصفحَ النبيُّ عن المرأةِ المَخْزوميَّةِ التي سَرَقت في عَهدِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فقالوا:

لايَستطِيعُ أن يَشْفَعَ لها عند النبيِّ في ذلك إلا أُسامَةُ بنُ زَيدٍ، لأنه أحبُّ الناسِ إليه، فذهبوا إليه، وطلبُوا منه أن يَشْفَعَ لتلك المرأة.

وما إنْ بَدأَ «أُسامَةُ» الحديثَ مع النبيِّ حتى تَلوَّنَ وَجهُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وَسلَّمَ، فقال:

أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حدود الله؟.

فقال له أُسامة: استَغفِرْ لي يارسولَ الله.

قامَ رسولُ اللهِ صلى عليه وسلم يخطبُ في الناسِ فبعدَ أن أثنى على اللهِ قال:

أمَّا بَعْدُ، فإنما أَهْلَكَ الَّذين مِنْ قَبْلِكُم، أنهمْ كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّريفُ تَركُوه، وإذا سَرَقَ فيهمُ الضَّعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وإني

— وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ — لَو أَنَّ فَاطمةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَت لَقَطَعْتُ يَدَهَا »[1] .

وكَانَ عليه السَّلامُ مِثالَ الحاكمِ الَّذى يُتابِعُ أَحوالَ أُمَّتِهِ ، فكانَ يُراقِبُ وُلاتَه ، ويُحاسِبُهم على أَموالِ النَّاس .

قالَ عليه السَّلامُ : « مَا مِنْ وَالٍ يلِى شَيْئًا مِنْ أُمُورِ النَّاس إِلَّا أُتِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَة ، مَغْلُولَةً يَدُه إلى عُنُقِهِ ، لَا يفُكُّهَا إِلَّا عَدْلُه » .

وقد مَنَع النبيُّ صلى الله عليه وسلم الحكامَ أن يَجْعَلُوا من سُلطانهم ومَنْصِبِهم أداةً لجمع المالِ بِغَير حَق ، فقد رَوَى البُخارِيُّ ومُسلِم أن الرسولَ عليه السلام استَخدمَ أَحدَ الوُلاةِ عَلَى صَدقاتِ بَنى سَليم ، فلما جاء إلى النبيُّ صلى الله عليه وسلم وحَاسَبه ، قال : هذا الذى لكم وهَذهِ هَديَّةٌ أُهْدِيَتْ لى .

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم : فَهلَّا جَلَسْتَ فى بَيتِ أَبيك أو بيتِ أُمِّك ، حتى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُك إن كُنْتَ صادقًا ؟ ثم قام فخطب الناس ، ونَهَى عن مثل هذا وتَوَعَّدَ عليه .

وقد نَادَى الإسلامُ بِالشُّورَى وَاتَّخَذَها أَساسًا للحُكم ، إذ قال

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

سُبحانَه وتَعالَى فى كِتابِه العزيز « وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهم » .

وعَن أبى هُرَيْرَة « رَضِى اللهُ عنه » قال :

« لم يَكُنْ أحدٌ أَكْثَرَ مشورةً لأصحابِه من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم » .

وعلى هَذا النحوِ من العِنايةِ بالشُّورَى مَضَى الخلفاءُ الراشِدون ، لقد استشارَ أبو بكرٍ أصحابَه فِيمَن يَلِى الأمرَ مِن بعده ، وكانَ يَرجِعُ إليهم فى اختيارِ الوُلاةِ والقُوّادِ ، وتَسييرِ الجُيوش ، وتَوْزِيعِ الغَنائم .

وكذلك فَعَلَ عمرُ بنُ الخطاب ، فلم يَستقِلَّ دُون أصحابِه برأيٍ فى أمورِ الخِلافةِ ، فاسْتَشارَهم عِندما طَلبَ منه عَمْرُو بنُ العاصِ الإذنَ بفتحِ مصرَ ، واستَشارَهم فيمن يَقودُ جيوشَ المسلمين فى حربِ فارس ، وأَشارُوا باختيارِ سعْدِ بنِ أَبى وقّاصٍ فاختارَه ، كما جَعلَ الشُّورَى فى نَفرٍ من الصحابةِ لِيختاروا من بَيْنِهم مَن يَكون خَليفةً بعدَه .

والعَملُ بالشُّورَى يَحفَظُ حقوقَ الشَّعبِ ، ويَضْمنُ استِقامةَ حُكّامِه ، وحُسْنَ سَيْرِ الأُمُورِ .

والشُّورى فى الوقْتِ نَفْسِه مَظْهَرٌ من مظاهِرِ المُساواةِ وحُرِّيّةِ الرَّأى .

وفَرَضَ الرسول صلى الله عليه وسلم على العَالِمِ أن يُعَلِّمَ الجاهلَ ، وعلى الجاهلِ أن يَتَعَلَّمَ من العَالِمِ .

وفَرَض على العَالِمِ ألّا يَمْنَعَ النَّاسَ عِلْمَه ، وألّا يَكْتُمَ ماعَرَفَه بَيْنَ تَعَالِيمِ الدِّينِ وأسْرَارِ الكَوْن ، حتى لا يَنْفَرِدَ بالعِلْمِ وَحْدَه . وقد جاءَ ذلكَ فى قَوْلِه صلّى اللهُ عليه وسلم :

« مَن كَتَمَ (١) عِلْماً أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ من نارٍ يَوْمَ القِيَامة » .

وقال أيضاً : « خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَه » .

وكان النبيُّ الكريمُ دائِمَ الدَّعوةِ إلى نَشْرِ العِلمِ . وكان خُلفاؤُه وَأتباعُه مِن بَعْدِه يَسيرون على نَفْسِ الطَّريق ، فقامت الحَضارةُ الإسلاميةُ عَلَى أَسَاسَيْنِ قَوِيَّيْنِ هُمَا : الإيمانُ والعِلمُ .

وَانْتَشَرَ العِلمُ فى ظِلِّ الإسلامِ ، وأصبحَ هو النورُ الّذى يُضِىءُ العالَمَ فى القُرونِ الوُسْطَى المُظلِمَة ، وأصبحَ عُلماءُ العربِ أساتِذَةَ العالَمِ كلِّه فى هذهِ الفَترةِ من الزّمان .

وَبفضلِ العلمِ تَقدَّمت الزِّراعةُ والصِّناعةُ أَصْبَحَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلم فى تَقَدُّمٍ وَرُقِيٍّ وَرَفَاهِيةٍ .

---

(١) كتم : أخفى

وظلّ المسلمون يحترمون العلمَ والعلماء، حتى اعترف بعضُ مؤرخي الغرب، أن مدينة قُرْطُبَة في الأندلس — في فترة ازدهارها — كان فيها ما يقرُبُ مِنْ مليونَي نَسَمة، ليس فيهم أُمّيٌّ واحدٌ.

وهذا دليلٌ على احترام سيّدنا محمّدٍ وأتباعه للعلم والعلماء، وكيف استطاعوا بالإيمانِ والعلمِ أن يُقيموا حضارةً مِن أكبر الحضارات وأعظمها.

لقد حطّمَ النّبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم الأصنامَ، وحرّرَ العقولَ، ونشرَ الإيمانَ، وأنقذَ الأرقّاء، وعلّمَ الجاهل، وحرّرَ المرأة، وسوّى بين النّاسِ، وأقامَ العدلَ، وأخذ بالشّورى.

ألا يحقُّ بعدَ هذا كلّه أن نقرّرَ أن هذا النّبيُّ الكريمَ كان المصلحَ الأكبر، والمعلّمَ الأوّل، والقائد الأعظمَ، والحاكم الأعدل؟

وهذا هو الذي دفعَ «برنارد شو» المفكّرَ والكاتبَ الإنجليزيّ الكبيرَ أن يقولَ كلمتَه المشهورة:

«إنّني أعتقدُ أن رجُلاً كمحمّدٍ لو تسلّم زِمامَ حُكمِ هذا العالَمِ بأجمعِه اليومَ، لتمّ النّجاحُ في حُكمِه. ولقادَهُ إلى الخيرِ. وحلّ مُشكلاتِه على وجْهٍ يضمَنُ للعالَمِ السّلامَ والسّعادة».

للمؤلف

- نبي الاسلام : سيرته ـ دعوته ـ كفاحه
- حياة محمد وعظمته
- المعاملات بين الناس في الاسلام
- نبي الاسلام في مرآة الفكر الأوربي

تطلب من دار الفكر العربي والانجلو المصرية
بالقاهرة